# الوعي التاريخي وممارسة الهوية في رحلة ابن الصّبّاح

د. بوشعيب السّاوري(*)

**١- تقديم إشكالي**

**بعيداً عن اختزال الهوية إلى مجرّد عملية فردية على المستوى النفسي، كما دأبت عليه الكثير من التقاليد الفلسفية، يُعرّف لويس جاك دوري الهوية على أنها "الطريقة التي يبني بها الكائن البشري علاقته الشخصية مع المحيط." (٢) يلفت هذا تعريف دوري هذا، انتباهنا لأنه يحتوي على ثلاثة أبعاد للهوية ذات أهمية قصوى:**

(*) أستاذ باحث، ناشط في مختبر السرديات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك الدار البيضاء، من أعماله العلمية: الرحلة والنسق، دراسة في إنتاج النص الرحلي، رحلة ابن فضلان أنموذجا. (٢٠٠٧/٢٠١٧)، النص والسياق: ابن شهيد بين الرغبة الفردية وإكراهات السياق الثقافي دراسة للتوابع والزوابع، (٢٠٠٧/٢٠١٣)، صورة الاخر في رحلات عربية(٢٠١٤).

(2)Louis-Jacques Dorais, «La construction de l'identité» Dans Discours et constructionsidentitaires»,dir. Denise Deshaise et Diane Vincent (Laval: Les Presses de l'Université Laval, 2004), 2.

**أولهـا:** الهويـة علاقة، وليسـت صفـة جوهرية موجودة في حد ذاتها، في غياب الاتصال بالآخرين.
**ثانيها:** نظـرا لأن الهوية علائقية في المقام الأول، فهـي عرضة للتغيير عندما تغـيّر الظروف علاقة الفرد بالعالم، هذا يعني أنّه لا يتم إعطاؤها دفعة واحدة وإلى الأبد؛ بل هي مبنية.
**ثالثها:** تعـادل الهوية العلاقة التـي يبنيها المرء مـع محيطه. هـذا المصطلح له معنى واسـع جدا هنـا، لا يقتـصر المحيط على البيئـة الطبيعية، بل يتضمـن أي عنصر ذا دلالة يمثل جزءاً من محيط الشـخص: الأشـخاص أولاً وقبل كل شيء، وأيضا كلمـات وأفعال هؤلاء الأشـخاص، وكذلك الأفكار والتمثلات والتمثيلات (الصور التي تحمل معنى) التـي تنقلهـا هـذه الكلمـات والأفعـال، وكذلـك المنتجات المادية الناتجة عن النشـاط البشري[٣] ، وأثرها في التاريخ الفردي والجماعي للشخص.
وبالتـالي فمفهـوم الهويـة غـير منفصـل عـن التغيـيرات السياسـية والاجتماعيـة والاقتصادية التـي تؤثـر في الكائـن البـشري، وتنعكس في كل أشـكال تعبيره عن الهويـة وممارسـته لها. وقد ظلّـت الرّحـلات عبْر العصـور نصوصاً شـاهدة ومعـبّرة وكاشـفة عن أحـوال الإنسـان في بلدان الإقامـة وبُلدان الارتحـال، موضوعها الرئيس هو ذات المسـافر، بغضّ النّظر عن درجات حضُورها في النصـوص، هدفُهـا اكتشـاف الذات المسـافرة عـبْر اتّصالهـا واحتكاكها بالآخـر، لأن النّصوص الرّحلية في المقام الأول بحْث تقوم به ذات مسافرة في ذاتهـا ومن خلالهـا وفي العالم والآفاق، وكل ما تنقُله من معارف ومشاهدات وطرائف ومحكيات ومغامرات وأحـكام وتأملات يمرّ عبْرها، فلا يُرى الآخـر ولا العالم إلاّ انطلاقاً من انطباعات الرحالة الشـخصية[٤]. دون أن ننـسى أن النّصـوص الرّحلية تُجلّي هوية الرحالة وما تطْرحه من أسئلة شائكة حول علاقتها بذاتها ومحيطها وحاضرها وماضيها وتطلّعاتها المستقبلية وأحلامها وآمالها ورغباتها.
هـذا يعني أن النص الرحلي واحد من الممارسـات الاجتماعية للهوية التـي تتحقق نصيا في علاقتها بالوعي التاريخي، لأن هـذا الأخير، في رأي نيكول تيتيو غيون، يغذّي الهويـة الفردية أو الجماعية، نظراً لكونـه وعياً بالانتمـاء إلى جماعة لها تاريخ ولهـا إرث، يأخذه الفرد عـلى عاتقه أو يرفضه[٥] .
وهكذا يسهم الوعي التاريخي في بناء الهوية التي تُبقي الإنسان منتمياً إلى زمنه ومرتبطاً بتاريخه.
**ورحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار** للمُدجّن

(3)Ibid, 2–3.

(4)George Sand, «Lettes à un voyageur», Revue des Deux Mondes, 1836, tome VIII, 1er octobre 1836, 419.

(5)Nicole Tutiaux-Guillon, «L'histoire enseignée entre coutume disciplinaire et formation de la conscience historique; l'exemple français» Dans Identité, mémoire, conscience, Saint Étienne, dir. Tutiaux-Guillon. historique, Saint Étienne: publications de l'université de Saint Étienne, 2003, 28, cité par Catherine Duquette, Le rapport entre la pensée historique et la conscience historique: élaboration d'un modèle d'interaction lors de l'apprentissage de l'histoire chez les élèves de cinquième secondaire des écoles francophones du Québec, Collection Mémoires et thèses électroniques», thèse déposé en novembre 2011, Université Laval, 35.

الحـاج عبد الله بن الصبـاح[٦] ، المنتمي إلى القرن الميـلادي الثالـث عـشر المتميـز بسـقوط العديد من المدن الأندلسـية تحْت سـلطة الإسـبان بفعل حروب الاسـترداد؛ لا تخرُج عن هـذا الإطار. لكن هذا الطـرح يتعمّق ويتعزّز بكون صاحب الرحلة ينقل لنـا تجربته الشـخصية، انطلاقـاً من أزمة حـادة وعميقة أولاً وهـي وضعه المـذل كمدجّن؛ ويسـافر ثانياً لتحرير ذاته، ويكتب ثالثاً، بهدف التخفيف من حدّة أزمته والتغلّب عليها بلغة فليب لوجون[٧]، مطلقا العنان لآماله.

ومن أجل الكشـف عن هذا الوضع الذي عاشه ابـن الصبـاح، ومـدى انعكاسـه بجـلاء في نصه الرّحلي نتساءل: كيف طرحت هذه الرحلة إشكالية الهويـة؟ أو بالأحْـرَى أزمتها؟ وما هـي مآزقها؟ وكيف عالجتها؟ كيف تم تصور الهوية؟ وما هي المُرْتكزات التي بنيت عليْها؟ وكيف شـيّدتها؟ وما دور الوعي التاريخي والسرد في ممارستها نصيا؟

**٢- مصائب جزيرة الأندلس وأزمة الهوية**

دُوّنـت رحلـة عبـد اللـه بن الصباح في سـياق تاريخـي وحضاري هام، تجـلّى في تراجع الثقافة العربية الإسـلامية في الأندلس بسـقوط عدد كبير من الثغور التي كانت تحت حكم العرب المسلمين بأيـدي الممالك النصرانيـة، وكان لذلك أثر كبير في وضع المسلمين وهويتهم الذين تمسكوا بعقيدتهم، وبقوا هناك بعد أن أصبحوا أقلية وسط النصارى وعُرفوا باسـم المدجنين، وهو الوضع الذي اكتوى بنيرانـه صاحـب الرحلة عبد الله بـن الصّباح، إذ تضيق عليه الهوية في الواقع ويشدّد عليها الخناق مـن كل جانب في بـلاد الأندلـس، ويعيش وضعاً اجتماعيـاً مذلّاً بعْد سـقوطها الـذي كان فجيعة كبرى وخسـارة غير مسبوقتين بعْد موت الرسول والصّحابة بالنسـبة له، كما يقـول: "وقد وجدت في كثـير من تواريخ العرب في مصايب[٨] الأندلس أبياتاً يعارض أصحابها مصايب رسول الله صلى الله عليه وسـلم بمصايب جزيـرة الأندلس فقالوا في أبياتهـم إذا ذكـرت مصايبك فاذكـر ما أصاب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم تنسى به جميع المصايـب. وأجمعـت أصحـاب التواريـخ أن بعد مصايب المسلمين بموت رسول الله صلى الله عليه وسـلم وموت الصحابة بعده لم تكن خسارة على المسـلمين أكبر من خسارة جزيرة الأندلس إلى يوم القيامة، والله إنها فجيعة في قلوب المسـلمين حتى

(٦) "والمدجنون هم المسلمون الذين بقوا في المناطق المسيحية التي استولى المسيحيون عليها، أو ممن وفدوا إلى مناطق مسيحية واستقروا بها إما باعتبارهم أسرى حرب، وإما بصفتهم مهاجرين وفدوا من جنوب شبه الجزيرة، بسبب الاضطرابات السياسية العميقة هناك، أو هرباً من ويلات الحروب الأهلية، أو نتيجة للظروف الاقتصادية القاسية. أقام المدجنون في المناطق المسيحية في نطاق تجمعات مختلفة وفق تنظيم خاص بهم، تحكمهم سلطاتهم وقانونهم الخاص. ومر المدجنون على مر العصور بظروف تعرضوا فيها لعمليات اضطهاد متصاعدة استهدفت أحد أمرين إما الاندماج وإما الرحيل. والمدجنون هم أول نواة مهمة من السكان المقيمين في مناطق لا تحكمها سلطة سياسية مسلمة، وهذا يضفي اهتماماً خاصا على أساليب تنظيمهم، وطرق معيشتهم داخل التجمعات الخاصة بهم." عن مرثيدس غارثيا أرينال، شتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون)، ترجمة محمد فكري عبد السميع، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦)، ٦٩-٧٠.

(٧)عبد الله بن الصباح، رحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، تهذيب وتعليق محمد بنشريفة، (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠٠٨).

(8) Philippe LEJEUNE, «Cher cahier» témoignages sur le journal personnel (Paris: Gallimard, 1983), 11-12.

يأمر الله بإخلافها عليهم[٩] ."[١٠]

ولا يقف ابن الصباح عند هذا الحد من الكشف عن حجم وقع هذا الحدث الكارثي بالنسبة للوجود العربي الإسلامي في الأندلس الذي يقف أمامه مصدوما وعاجزا ومتحسرا، بل يشبّه خروج العرب المسلمين منها، والتي عدّها فردوسا كانت بيد المسلمين وضيّعوها من دون قتال، بخروج آدم من الجنة ويجب البكاء عليها مثل ما بكى آدم على خروجه من الجنة. يقول: "قال بعض المؤرخين في مصيبة جزيرة إصبانية على المسلمين: إنه وجب على كل من سكنها في تلك الأزمان أن يبكي عليها كما بكى آدم على الجنة التي في السماء وقت خروجه منها، وهذه جنة حدثت بين يدي المسلمين وتمكّنوا فيها أمكن تمكين جملة سنين ثم انسابت بيد باردة بلا قتال ولا مبارزة أواه أواه ثم أواه!"[١١] وما ترتّب عن هذا الخروج من نتائج مأساوية على وجود العرب المسلمين هناك، أبرزها أن يضيّق عليهم ويفرض عليهم العيش كمدجنين، ويحرمون من مجموعة من الأمور أهمها ممارسة عبادتهم، وحرمانهم من مدارس يؤخذ فيها العلم من أفواه الرجال. يقول: "فرغنا من وصف جزيرة أصبانية المباركة، ذكرناه على وجه الاختصار لأن الشيء الطويل يلتبس على الطالب الضعيف من قلة الشيوخ ويصعب عليه من غير شيخ أن يتصور وجه المسألة، لأنه لا بد لكل علم من معلم كما قيل: من شيخ يريك شخوصه والا فنصف العلم عندك ضايع. ومن لم يكن له دليل من شيخ أو كتاب ينقل عن شيخ كان الشيطان شيخه، إنه للإنسان عدو مبين، ولما علم الحاج أن بلاد الدّجْن المغصوبة من يد المسلمين لم يبْق فيها شيخ لهذه الأشياء ولا من يعتبرها أقصر وأوجز الخطاب" [١٢].

(٩) هكذا كتبت في النص ويقصد مصائب، تجدر الإشارة إلى استعمال الكاتب للكثير من العبارات العامية.
(١٠) أي بعودتها إليهم كما يعلق محمد بنشريفة.
(١١)عبد الله بن الصباح، رحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ٦٥.

## ٣- ممارسة الهوية

كانت الرّحلة فرصة لابن الصباح ليتحرر من هذا الضيق المذل؛ وتتسع هويته من خلال أربعة أفعال ارتكز عليها التّحقق النصي لرحلته ومعه بناء الهوية:

### الأول: سرد تاريخه الخاص والعام

في مقالته "التاريخ والذاكرة والهوية"، يشير المؤرخ الأمريكي ألان ميجيل (Allan Megill) إلى أنّه حين تكون هناك مشكلة في الهوية، تعطى قيمة للذاكرة[١٣]. فتُقدّم الذاكرة نفسها على أنها ملاذ يُحتمى به لحل أزمة وإشكالية الهوية؛ وبالتالي يكون استخدام الذاكرة عنصراً أساسياً في البحث عن الهوية، تمشّياً مع تعريفها من منظور سيكولوجي على أنّها "تركيب وخلق وخيال وإعادة بناء الماضي"[١٤]. كما يذهب الكثير من الباحثين إلى أنّه يجب البحث عن الهوية في خطاب الذات حول تاريخها [١٥] . ويوضح كل من هوبرتوس

(١٢) المصدر نفسه، ٦٦.
(١٣) المصدر نفسه، ٧٦.
(14) A. Megill, «History, Memory, Identity». History of the Human Sciences, 11(3), (1998): 40.
(15) M. Delage, «Le traumatisme psychique», Dans Mémoire et écriture. Actes du colloque organisé par le Centre Babel à la Faculté des Lettres de l'Université de Toulon et du Var, les 12 et 13 mai 2000, dir. M. Léonard (23-42) (Paris: Honoré Champion, 2003), 27

هوبلـين (Hubertus Hubbeling) (١٩٩٠) وألسـادير ماكينتـير (Alasdair Macintyre) (١٩٩٧) وبـول ريكـور (Paul Ricœur) (١٩٩٨) أن الـسرد يجعل من الممكن ملء التمزق في السيرة الذاتية من خلال ربط اللحظات المتتالية بإطار يروي التحولات التي مرّ بها الفرد؛ وبالتالي، فإن السرد لديه القدرة على تأسـيس الاستمرارية من خـلال الانقطاعـات. فهوية الفـرد هي هوية الشـخص الذي مرّ بلحظات متتالية في وجوده. في النهاية، سـينتج الشـعور بالهوية من القدرة على إبـراز الخيط المشـترك لرحلة الحياة، وهو شـكل من أشـكال الإخـلاص للذات، والذي يجـب دائماً إعـادة التقاطـه من خـلال الـسرد [١٦]. فلتقديم هويته وممارستها وجواباً عن سؤال من أنا وكيف أصبحت أنا ما عليه الآن انطلاقاً من تاريخي، فإن ذلـك يعني اعتبار الهوية ناتجة عن بناء، وأن هذا البنـاء لا يمكن فهمه إلا من خلال السرد. وبالتالي فالهوية البشرية سردية [١٧].

وهـو مـا نهجه ابـن الصبـاح في رحلته هذه، إذ ارتمـى في أحضان المـاضي، اعتماداً على ذاكرته القرائية للمسعودي والحضرمي وابن الجزار، عبر الحضور القوي للقصـص والمرويات والحكايات التأسيسـية [١٨] التي تتخذ في كثير الأحيان طابعاً أسـطورياً، يقـول: "اعلـم أيهـا القـارئ أن كل ماكتبناه وسـطّرناه هو كلّه من صدورنا ودماغنا [١٩]." ويفتتـح رحلته بالحديـث عن أسرته وعن أصولهـا العربية اليمنيـة، وعن دورهـا في الفتح العربـي الإسـلامي للأندلـس، وهجـرات العرب إليها، وقصـة انتقال أجداده من بلاد اليمن البلدة الطيبـة، وعـن حكّامها وفـترات حكمهـا الزاهية والمجيـدة، وعـن جذورهـا المغرقـة في التاريـخ. يقـول: "وقصـة انتقـال أجدادنا من بـلاد اليمن البلـدة الطيبة قصة طويلة ولكن نختصر منها ما يكفي العاقل الفهيم فهي قصة السـتة عشر مائة فـارس من آل حمير الذين طلبـوا الجهاد إلى بلاد الـترك على خلافـة الوليد بن عبد الملـك بن مروان فأرسـلهم إلى جبل الفتح وكان فيهم موسـى ابن نصير وطـارق مولى ابـن نصير المشـهور وذلك على عهد الأندريق من ذرية الملك هرقل المشـهور، فـكان من شـأنهم أنهم خرجوا من اليمن برسـم الجهـاد وابتغـاء مرضاة الجبار من قبائل شـتّى ففتحوا جزيـرة الأندلس إصبانية، من جبل الفتح إلى ترقونة وجلّها مدائن وقلاع وحصون وأمصار، فتحوها بـإذن الله والتقوى والسـيوف الهنديات والبيضات العاديات والمـزارق اليمانيات الطوال، وسـكنوها عمراً طويلاً حتى انتشأ فيها، الذريات من الرجال والأبطال، فكان الحاج عبد الله المؤلف من ذرية أولئك الرجال، وهم الصباحيون وغيرهم مـن القبائل رحمهم الله رحمـة باتصال، إلى يوم الحشر والسؤال، فهُم أهل الحسب والأدب والكرم والشـجاعة والحياء والتقوى والفصاحة والمقال،

(16)Élisabeth Guibert-Sledziewski, «Sujet et identité», L'Homme et la société, N.101, (1991): 47. doi: 10.3406/homso.1991.2558.

(17) Pierre-Yves Brandt, «Rôles variés des récits dans la construction narrative de l'identité religieuse», Dans Récit de soi et narrativité dans la construction de l'identité religieuse, dir. Pierre-Yves Brandt, Paulo Jesus et Pascal Roman (Paris: Éditions des archives contemporaines, 2017), 6.

(18)Ibid, 6.

(19) Ibid, 9.

بِهم تُـضرب الأمثال حتى آخر الزمان، وهم الذين فتحـوا البلاد وجعلوهـا مهادا ومعايـش وغلالا، وتركـوا الرعب في قلوب اليونانيين الروم والهراقل وبني الأصفر والقياصرة والأكاسرة ونشروا الدين الشريـف ديـن الإسـلام وملـة نبينا محمـد عليه السـلام لقوله عليه السـلام: يوم ولـدت زويت لي الأرض كلها حتى ظهرت لي قصور الشام وسيبلغ ملـك أمتي من بعدي ما زوي [٢٠]." ليمنحَ هويته مرتكـزاً تاريخيـاً موضوعيـاً، لكنّـه يضفي عليه طابعـاً أسـطورياً، بمـا تتيحه الذاكـرة من خلق وإعادة بناء للماضي، لا يخفي ذاتيتها عبْر التركيز على نسبه وأسرته، ووضع اليد على أدوارها الكبيرة في تاريـخ الأندلس، مفتخرا بذلك ومعتزا به كنوع من التعويض عن مرارة الذل الذي عاشـه في بلاد المدجنـين [٢١]. يقول: "وجب علينا أن نبتدئ ببلد كان فتحها أجدادنا وسـكنها الصباحيون قبائلنا وآل قيس والفهريون ولخم وجذام وربيعة ومضر وذرية كهلان وهم والأنصار من قبائل حمير الكبير من ولد سـبأ بن كسـب بن يعرب بن قحطان بن هود الرسول عليه السلام إلى قوم عاد بن عابر بن شـالح بن ارفخشد بن سـام بن نوح عليه السلام هؤلاء قبائل قحطان، وآل عدنان والعدنانيون أهل الحجاز هم قرشـيون ذرية إسـماعيل بن إبراهيم الخليـل عليـه السـلام، وهـم العرب المسـتعربة، والعـرب العاربة هم اليمانيـون آل قحطان ذرية هود الرسـول. فكان في سـابق علم اللـه تعالى أن تكون عمـارة جزيـرة الأندلس من هـذه القبائل المذكـورة، فلذا وجب علينـا ذكرهم ونشر فخرهم ومواطن مكانهم إذ كان مسكنهم من اليمن أرض مأرب وهي أرض سبأ [٢٢]."

ولا يكتفـي ابـن الصبـاح باسـترجاع المـاضي اعتمادا على السـماع والذاكرة، بـل يعتمد العيَان، بالعـودة إلى الحـاضر الذي هو اسـتمرار له، من خلال امتداد حكم أجداده في مملكة غرناطة الذي يخفـف عنه ويتسـلى به عـن حزنه على خسـارة الأندلـس. ويثبت ذاتـه عبْر إصراره عـلى الوجود الأندلسي في إسـبانيا مـن خلال مملكـة غرناطة. يقـول: "فلمـا جئت مُلـك الملك الأحمـر الحميري وهو ملك الأندلـس في زمانا وجئت مدينة غرناطة وهي كرسي مُلكه فوجدتها مدينة حسـنة البنيان مليحـة الأركان متعلقة بالجبل، وفيهـا الحمراء، وهي دار السلطان، والمدينة خصيبة من كل شيء، كثيرة الماء والحرث والزرع والبسـاتين والخضرة والعمـارة اليـاسرة والعدل في الأحـكام بين أهلها والضبـط في البيع والشراء، يتحفظون عن الحلال والحـرام، لا فيها جائع ولا عريان ولا شـاكى ولا باكي وهذا يدلّ على العدل والإحسـان. وقد تسلّت نفْسي لمـا رأيت هذا عـن حزنى لخسـارة جزيرة الأندلـس، وقلْـت: الحمد لله الذي أبقـى بقية من جزيـرة إصبانية في حكم المسـلمين، وحمدتُ الله وشـكرته على أن الله إذا غضب على شيء من خلقه يغلـب حِلمه وجوده وكرمـه وفضله ورحمته على غضبه وسخطه [٢٣]. "

هكـذا يعمـل ابـن الصبـاح، من خـلال السّرد التّاريخي المؤسّـس على الذاكرة، على تأكيد هويته

(٢٠) عبد الله بن الصباح، رحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ٧٤.

(٢١) المصدر نفسه، ٥٦-٥٧.

(٢٢) من مقدمة مهذب الرحلة محمد بنشريفة، ٥٢.

(٢٣) عبد الله بن الصباح، رحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ٥٨.

مـن خـلال اسـتحضار مجموعـة مـن المرويات الموسـومة في كثير من الأحيان بطابع أسـطوري، كنوع من التعويض عن المخاوف المحدقة بالهوية على المستوى الموضوعي، ويُثمّن في المقابل استمرار بني الأحمر في الحكم في الحاضر.

**الثاني: السير في بلاد المسلمين**

لم يكن سير ابن الصباح في جلّ جغرافيا العالم العربي الإسـلامي آنذاك غربـاً وشرقاً في اعتقادي اعتباطياً، وإنّما كان مقصوداً وعن سـبْق إصرارا ليحل أزمة هويته بالارتماء في امتداد بلاد الإسلام. يقـول: "واعلـم أني منهم سـافرت في طلب العلم واختصرت هـذه الرحلة في هذا الكتاب إخباراً لهم بما في أرض الله من البلاد والعمائر والإسـلام من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع النبيين والحمد لله رب العالمين [٢٤]."

وإذا كان الهدف الأساسي المعلن عنه من رحلته هـو أداء فريضة الحج، فإن المسـكوت عنه هو أن ابن الصباح اتخذ من رحلته هذه "حجا" موسـعاً إلى جغرافيـا العالـم العربـي الإسـلامي؛ إذْ كان السـفر لحظة انفتاح أكبر للذات من خلال السـير في بلدان العالم الإسـلامي غرباً وشرقاً، ليكتشـف عالماً إسلامياً فسيحاً قوياً عزيزاً [٢٥] مهما اختلفت أجناسـه ومذاهبـه توحـده العقيـدة الاسـلامية، ليعوّضـه عن ضيق وجوده بـين المدجنين. يقول: "اعلم أيها القارئ أن كل ما وصفت لك من الأقاليم وملوكها وسلاطينها من الأمة المحمدية فكلهم على عقيدة الإسـلام وسـورة الإخلاص اعتقاداً بالقلب ونطقاً باللسان يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلوات وإيتاء الزكات وصوم شهر رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً [٢٦]."

افتتـح رحلته بفصل في وصف جزيرة الأندلس ووطـن المؤلـف وموضع مسـقط رأسـه وتربيته وقبور والديه وأجداده من وقت فتوح الأندلس إلى خلافة بني أميـة، ولكي يصل التاريخ بالجغرافيا والمـاضي بالحـاضر في إطـار ممارسـته للهويـة انطلـق من غرناطة، مرورا عبر سـبتة، ومراكش، وفاس، وتلمسـان، والجزائر، وتونس، والقيروان، وطرابلـس، ومـصر، والحجـاز، واليمـن، وبـلاد اليمامة، ونجد، وبلاد الشـام، والقسطنطينية قبل فتْحها من السلطان العثماني محمد الثالث، وبلاد فارس وصـولا إلى العراق، بوصفهـا مع الإصرار على الاختصار، كما شـدّد أكثر من مرة في رحلته، حتى يشملها كلها.

ورغم تشـديد ابن الصباح على اعتماده العَيَان في تقديم وصف شـامل للبلـدان وما تزخر به من إمكانـات طبيعية وكـذا أخلاق أهلهـا وطبائعهم ومعاشـهم، بقوله: "ولذلك زعمنـا بما وصفنا في رحلتنا المسـماة بكتاب أنسـاب الأخبـار وتذكرة الأخيار شرط العيان" [٢٧] ، وبقوله أيضاً في حديثه عن مدينة فاس: "ونصِفُ مدينة فاس كأنك تنظر إليها بالعين والحقيقة [٢٨]." فإنّنا نلاحظ أن هذا الوصـف خالطته العديد من الأخبـار والحكايات التـي تجانـب في كثـير مـن الأحيـان الصـواب، انسجاماً مع سعيه لربط التاريخ بالجغرافيا، مثل

(٢٤)عبد الله بن الصباح، رحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ٦٧.

(٢٥) المصدر نفسه، ٢٣٠.

(٢٦) من مقدمة مهذب الرحلة محمد بنشريفة، ٥١.

(٢٧) عبد الله بن الصباح، رحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ٢٢٦.

(٢٨)عبد الله بن الصباح، رحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ٦٨.

الحكاية التي ساقها عن أصل مدينة فاس: "قال الراوي: كذلك مدينة فاس لما انقرضت دولة ذرية يعقوب المنصور قامت دولة بني مرين فأرادوا أن يسكنوا مراكش فما طابوا بهم أهلها ونزلوا إلى فاس فبنوها وقامت فيها مملكتهم إلى زماننا هذا، وكان اسم فاس موجوداً قبل قيام مملكة بني عبد الحق، وذلك أن أصحاب التواريخ كانوا يرون أن ذلك المكان تقوم فيه دولة ومملكة فكانوا يسمونه بأس، فلما طال الزمان وتبدلت الأحوال أهملوا الاسم وأبدلوه بلسان العامة فاس، وقيل إنما سمي فاس لأنه كان موضع غيضه من الماء والمروج ولم تعمر عمايرها إلا بالفاس فكان الرجل كلما سئل من أين جئت، قال في جوابه كنت نخدم بالفاس وكان يكرى الرجل فيشترط عليه الخدمة بالفأس، والأنسب عند أهل التواريخ الوجه الأول وهو البأس لأن مملكة بني مرين مملكة قهر وباس وشدة ملكوها شرقاً وغرباً من كل ما يليهم من الملوك بالقهر والقدرة والمال والخيل واللبوس والعساكر والإمارة والقياد والعلوج من النصارى والعبيد والوصفان والخدام والنظار والقوام، ملكوا من مدينة فاس إلى إفريقية والقيروان ومن القبلة إلى حد ملك السودان بالقوة والشدة حتى قهروا ملوك بني الأصفر من عبّاد الصلبان يخافون منهم خوف الموت، وكان جدهم ينقضّ على المبارز مثل العُقاب فكان من ذرّيته بنو عبد الحق[٢٩]."

نلاحظ، إذن، أن ابن الصباح في سيره في بلدان العالم الإسلامي ووصفها الذي اختلط بكثير من المرويات، يسلي نفسه ويخفّف من أزمة هويته ويوسّعها ويقوّيها بالانتماء الجغرافي الممتد.

**الثالث: تفضيل الأندلس**

لكي يقول الرحالة الآخر يضطر إلى اعتماد المقارنة ، التي هي شبكة يلقيها السارد في مياه الغيرية ، بإبراز التشابهات والاختلافات بين الأنا والآخر، وتقوم المقارنة بعدّة تصنيفاتن وتشتغل في النص الرحلي كالترجمة.

وتعدّ صيغتا التفضيل والتّشبيه من الآليات اللغوية التي اعتمدها الرحالون على مرّ العصور في هذه المقارنات لنَقْل تجربة الاختلاف. ونلاحظ حضوراً قويا لهما في رحلة ابن الصباح التي جاءت كنوع من الحل لأزمة الهوية ونوعاً من التخفيف عن مصابه الجلل، من خلال الحضور القوي للأندلس على طول الرحلة. إذ يجعل ابن الصباح الأندلس مرجعاً ينظر من خلاله إلى الأشياء، والتي تبقى في نظره مفضلة تسمو مدنها وطبيعتها على باقي بلدان العالم الإسلامي التي جابها في رحلته.

انطلاقاً من فكرة أن كلّ ما هو مفقود وضائع عزيز وتصير له قيمة أعلى ولا يُضاهى، تصير الأندلس في نظر الكاتب أفضل من كل البلدان يقول: "دخلت البلاد وعاشرت العباد فلم أر أفضل ولا أحسن من مُلك الأندلس ساكنها سعيد والميت فيها شهيد... [٣٠]" ومرجعاً ينظر من خلاله الرّحالة إلى بلدان العالم الإسلامي التي جابها في رحلته. يقول: "من أراد أن ينظر إلى دمشق الشام فلينظر إلى بلنسية وغرناطة في الماء والهواء والعمارة والبنيان الحسن، وأنا لم تطِب نفسي فيما دخلتُ من المدائن على سكنى غير مدينة غرناطة. وهي كثيرة الحصون والقرى والمدن مثل الشام وقد كان المسافرون يصفون المدن ويقولون إن جزيرة الأندلس شامية فكان الحق ما قالوا. قال المؤلف لم أر في الأقاليم الخمسة التي دخلْت من السبعة أقاليم أحسن ولا أملح ولا أضوأ منظرا من أرض بلنسية وأرض مرسية وأرض قرطبة وأرض غرناطة ومن أراد أن ينظر ملك الشام فلينظر إلى هذه البلاد غير أن الشام هي الأرض المقدسة وفيها المحشر وإليها المصير وبلاد ملك

(٢٩) المصدر نفسه، ٨٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ٨٤-٨٥.

بنـي الأحمر لها من المدائن عدد مثل مالقة ووادي آش وبسـطة دار الزعفـران والمريـة دار التجـار والمنكـب دار القصب الحلو والسـكر ومالقة دار الذهب في الفخار وجبل شـلير دار الحرير المفتخر وتحته المدينة المذكورة غرناطة دار صناعة نسيج الحريـر والشرب والزردخـان، ولم يـر في الآفاق صنعة في كلما جـاءت الناس به من الصنايع مثل مدينـة غرناطـة، وملكها وحرثها ونسـلها كافية عن سـائر الأرض والأقطار، بـلاد لا تنقطع منها غلـة مـن زرع وثمـار، حبوبها يـاسرة وعمارتها كثـيرة لا عندهم خوف من محـل ولا جوع رجال بطونهم مخمصة ووجوههم مضيئة وأجسـامهم شديدة[٣١]."

**الرابع: الإيمان بعودة الأندلس**

يثبـت الإنسـان الوعي التاريخي حين يسـعى جاهـدا لفهم انتمائه الخالـص للزمن أو أيضاً إلى التاريـخ[٣٢]. والإنسـان بهـذا الفعل يكـون همّه هو المسـتقبل، يعني توقّع ما يكـون انطلاقاً مما هـو كائن وما كان، ويعتـبر الكتاب المحدثون أن الوعي التاريخي سلوك تاريخي يدفع الإنسان إلى تأويـل الماضي من أجل فهم الحـاضر والتطلع إلى المستقبل[٣٣].

وهذا المسـعى مارسـه ابن الصبـاح في رحلته انطلاقاً من إيمان راسخ لديه بأن الأندلس ستعود إلى المسـلمين مهْما طال الزمن يقول: "حتى يأمر الله بإخلافها عليهم [٣٤]." إذا ما عدّوا من أسباب تضييعهم لها، والتي ترجع في نظره إلى انصرافهم إلى اللهو وتعدّيهم الحدود وتضييع الشرع، يقول: "لما سـكنت العرب جزيرة الأندلس وتمكّنوا فيها وسـاروا فيها، ملـوكاً من كثـرة النعمة والخصب والتمكين المتـين والأكل والشرب والفرح والسرور والفرجـات والبسـاتين وضرب العيـدان والأوتار وكثرة الزينـة واللهو والفسـق والعصيان وبدّلوا وغـيّروا واختلـف ملوكهم وخان بعضهـم بعضاً ومنعـوا الـزكاة وضيعـوا الصلاة وفرطـوا فيها وارتكبـوا المعـاصي والفواحش ومالـوا إلى الدنيا ونسـوا الآخرة وتعدوا حدود الله وضيّعوا الشرع وكنزوا الأموال ولم يجد غنيهم على فقيرهم وقست قلوبهم وعميت أبصارهم وصمت آذانهم وقصرت أيديهـم عن الصدقـات وغلب على قلوبهم الشـح والبخل والحـرص على الدنيا وطمع بعضهم فيما في أيدي بعض ووقع الحسـد بـين ملوكهم وفتنوا بعضهـم بعضا سـلّط الله عليهم عدوّهم وسـلب عنهم بلادهم وعاملهم بذنوبهم والله تعالى يقول: (ذلـك بـأن الله لـم يك مغـيراً نعمـة أنعمها على قوم حتـى يغيّروا ما بأنفسـهم)، وأي تغيير أكثر مـن تغييرهـم نعمة الإسـلام في تعدّيهـم الحدود وتضييعهم الشرع فمن غيّر شـيئاً في دين الإسلام ممّا ينكره الشرع فقد غيّر الله عليه جميع النعايم، لأن كل نعمة أنعمهـا الله على عباده هي داخلة في نعمـة الإسـلام، أوَلَا يعلمـون أن كل نعمة في غير الإسلام ليست بنعمة [٣٥]."

**٤- تركيب**

هكذا كان ابن الصباح في حاجة إلى هذه الرحلة للخروج من ضيق وضع المدجّنين بين المسيحيين، ليتوجّه نحـو رحابة الجغرافيـا والتاريخ، إذ قام برحلـة عبر ربـوع جغرافيا العالم الاسـلامي من الغرب إلى الشرق، واستعاد من خلال مجموعة من المرويات والقصص تاريخ الإسـلام وتاريخ أسرته وانتماءهـا اليمنـي، ومن نهجه أسـلوب المقارنة الذي نحا فيه إلى تفضيـل الأندلس على غيرها من بلدان الإسـلام، وظل متسلّحاً بالأمل في عودتها إلى

(31) Francois Hartog, le miroir d'Hérodote (Paris : Gallimard, 2001), 348.

(32) Ibid, 348.

(33) Ibid, 349.

(٣٤)عبد الله بن الصباح، رحلة أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ٦٩.

(٣٥) المصدر نفسه، ٧٢-٧٣.

المســلمين، ليحلّ أزمة هويته وتشييدها من خلال هذه العمليات الأربع التي فصلناها أعلاه.

## بيبليوغرافيا

### عربية


- أرينــال، مرثيدس غارثيا. شــتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلســيون). ترجمــة محمد فكري عبــد الســميع، القاهــرة: المجلس الأعــلى للثقافة، ٢٠٠٦.

- ابــن الصباح، عبد اللــه. رحلة أنســاب الأخبار وتذكرة الأخيــار. تهذيب وتعليق محمد بنشريفة، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠٠٨.


### أجنبية


–Brandt, Pierre–Yves, «Rôles variés des récits dans la construction narrative de l'identité religieuse», Dans Récit de soi et narrativité dans la construction de l'identité religieuse Sous la direction de Pierre–Yves Brandt, Paulo Jesus et Pascal Roman. Paris: Éditions des archives contemporaines, 2017.

–Dorais, Louis–Jacques. «La construction de l'identité» Dans Discours et constructionsidentitaires, sous la direction. Denise Deshaise et Diane Vincent. Laval: Les Presses de l'Université Laval, 2004.

– Duquette, Catherine, Le rapport entre la pensée historique et la conscience historique: élaboration d'un modèle d'interaction lors de l'apprentissage de l'histoire chez les élèves de cinquième secondaire des écoles franco–phones du Québec. Collection Mémoires et thèses électroniques. thèse déposé en novembre 2011 Université Laval.

– Guibert–Sledziewski, Élisabeth. Sujet et identité. In: L'Homme et la société, N. 101, 1991. Théorie du sujet et théorie sociale. pp. 41–48. P.47. doi : 10.3406/homso.1991.2558.

http://www.persee.fr/doc/homso_0018–4306_1991_num_101_3_2558

–Hartog, Francois. le miroir d'Hérodote. Paris: Gallimard, 2001.

–LEJEUNE, Philippe, «Cher cahier» témoignages sur le journal personnel (Paris: Gallimard, 1983).

–Megill, A.. «History, Memory, Identity », History of the Human Sciences, N°11(3) (1998): 37–62 .

–Sand, George, «Lettes à un voyageur», Revue des Deux Mondes, 1836, tome VIII, 1er octobre 1836.

–Tutiaux–Guillon, Nicole, «L'histoire enseignée entre coutume disciplinaire et formation de la conscience historique ; l'exemple français» In Tutiaux–Guillon coll. Identité, mémoire, conscience, Saint Étienne, historique. Saint Étienne : publications de l'université de Saint Étienne, 2003.